الأدب العربي الحديث

دراسة في شعره ونثره

الدكتور سالم الحمداني

الدكتور فائق مصطفى أحمد

(الفصل الأول)

الشعر العراقي في القرن التاسع عشر

كانت حالة العراق في القرن التاسع عشر امتداداً للقرون المختلفة منذ احتلال بغداد (٦٥٦هـ). وذلك لأسباب يتصل بعضها بوقوعه تحت الصراع التركي الفارسي، وللوهن الذي أصيب به خلال تلك القرون ألتي تختلف فيها سياسياً واجتماعياً وفكرياً، وربما كان للروح القبليّة، وتحكم العادات والقيم العشائرية أثره في هذا التخلف. كما أن سوء الإدارة ألتي تحكمت في ولاياته المختلفة على عهد الأتراك، كان أشد الأسباب ألتي انعكست آثارها في تأخره، وهذا التأخر قد عطل حياة العراق عن حركة التطور، وضعف نبض قلبه كان يخفق بالحيوية من قبل تلك القرون وإذا كانت ثمة ظروف قد ساعدت على يقظة بعض الأقطار العربية، كمصر ولبنان وسوريا، قبل العراق، فإن هذا الأخير ظل يعاني من التخلف ألذي ألمحنا أليه، بسبب احتفاظ الأتراك بالسيطرة عليه أولاً، ثم وقوعه في براثن الاحتلال البريطاني بعدَ ذلك. فظل العراق يعاني من سيطرة الحكم الأجنبي، وحرم من التمتع بحريته وخيرات أرضه، حتى بعدَ إعلان الحكم الملكي، الذي ارتبط بالعديد من المُعاهدات مع الانكليز، والتي قيدت حريته وجعلته يسير في ركاب غيره.

وإذا جاز لنا أن نوّضح أبعاد هذه الصورة المختلفة. فإن صورة المجتمع العراقي تُمثل أول هذه الأبعاد.

۞ ۞ ۞ ۰

(الفصل الأول)

الشعر العراقي في القرن التاسع عشر

كانت حالة العراق في القرن التاسع عشر امتداداً للقرون المختلفة منذ احتلال بغداد (٦٥٦هـ). وذلك لأسباب يتصل بعضها بوقوعه تحت الصراع التركي الفارسي ، وللوهن الذي أصيب به خلال تلك القرون ألتي تختلف فيها سياسياً واجتماعياً وفكرياً ، وربما كان للروح القبليّة ، وتحكم العادات والقيم العشائرية أثره في هذا التخلف . كما أن سوء الإدارة ألتي تحكمت في ولاياته المختلفة على عهد الأتراك ، كان أشد الأسباب ألتي انعكست آثارها في تأخره ، وهذا التأخر قد عطل حياة العراق عن حركة التطور ، وضعف نبض قلبه كان يخفق بالحيوية من قبل تلك القرون وإذا كانت ثمة ظروف قد ساعدت على يقظة بعض الأقطار العربية ، كمصر ولبنان وسوريا ، قبل العراق ، فإن هذا الأخير ظل يعاني من التخلف ألذي ألمحنا أليه ، بسبب احتفاظ الأتراك بالسيطرة عليه أولاً ، ثم وقوعه في براثن الاحتلال البريطاني بعدَ ذلك . فظل العراق يعاني من سيطرة الحكم الأجنبي ، وحرم من التمتع بحريته وخيرات أرضه ، حتى بعدَ إعلان الحكم الملكي ، إذ ارتبط بالعديد من المُعاهدات مع الانكليز ، والتي قيدت حريته وجعلته يسير في ركاب غيره .

وإذا جاز لنا أن نوّضح أبعاد هذه الصورة المختلفة . فإن صورة المجتمع العراقي تُمثل أول هذه الأبعاد .

۞ ۞ ۞ ۰

فقد كان العراق مُقسماً إلى ثلاث ولايات هي ولاية بغداد وولاية الموصل ، وولاية البصرة ، وكان حُكام هذه الولايات أتراكاً ، عدا فترة المماليك القصيرة . وكانت الولاية تتركز بيد الوالي ومجموعة من الموظفين ، ومعظمهم من الأتراك أو من الأسر العوسرة التي كانت تربطها بالوالي علاقة طيبة . ولم تكن علاقة الناس به كذلك ، ولا كانت كذلك مع معظم الموظفين في الولاية .

وأشد مظاهر التفسخ في الولايات العراقية ، شيوع الرشوة ، إذ كانت أعلى المناصب والوظائف عرضة للثراء ، ومن ضمنها الولاية نفسها ، وكان هذا يستدعي صراعاً على السلطة ، فتشتري ذمم الناس وضمائرهم بالأموال ، التي تجبى ـ باسم الضرائب والهدايا التي تُجمع ، وتُساعد الوالي على الاحتفاظ بمنصبه .

وقد أدّى هذا إلى شكوى الناس وتذمرهم . وكان الصراع على السلطة يؤدي إلى الفوضى والسلب والنهب والقتل .

وكان للوالي مساعدون إداريون ، أمثال الكتخدا والدفتر دار والقاضي ولخازندار ، ويُنضم اليهم موظفون أقل شأناً يساعدونهم في أمور إدارتهم ولم تكن هذه الوظائف ـ حتى الصغيرة منها ـ لتتم لأصحابها إلاّ بالتزلف والمحسوبية ودفع الرشوة مِمّا ينتهي إلى صراع ينسحب أثره على الناس . ولعلّ من مظاهره شيوع حالة البؤس والشكوى والأنين التي كانت تبدو في قصائد الشعراء .

وعلى الرغم من تحقق هذه الصورة السيئة ، فقد ظهر بعض الولاة في العراق من الذين تركوا آثاراً طيبة خلال فترة ولايتهم ، من أمثال سليمان باشا الذي تولى الحكم ما بين (١٨٠٨ـ١٨١٦) فقد امتاز حكمه (ببعض الإصلاحات) إذ منع عماله من قبول الهدايا والرشوة ... ومنع التعذيب ومصادرة الأموال وألغى بعض الضرائب ... كما قرّب العُلماء وأكرمهم وأنشأ بعض المدارس وشيّد المساجد)[1] .

وربما كانت هذه الإصلاحات سبباً في عزله وقتله .

---

(١) ينظر : الشعر العراقي في القرن التاسع عشر / يوسف عز الدين / ١٣

لفتكه بقبائل كعب العربية بما يجعل هذا الانتصار أعظم من يوم ذي قار ، ولا يكتفي هذا الشاعر العربي بهذا الغض من قيمة قومه العرب ، فيعمد إلى إهدار كرامته حين يتمنى أن يُقبل يد هذا الوالي الظالم فيقول :

من لي بتقبيل كف صوب عارضها يزري بواكف صوب العارض الهطل

ويمعن الشاعر عبد الغفار الأخرس بإذلال نفسه حين يتمنى عودة الوالي داود باشا ليُقبل قدميه فيقول :

فألثم أقدام الوزير ألتي لها إلى غاية الغايات ممشى ومهيع

وهذا قدح بمُصداقية تجربته أيضاً . ودليل انحطاط صورة الشاعر وفنه . كما أنها دليل على حالة الانفصام ألتي كانت تسود علاقة الشاعر بمجتمعه وحكامه[1] .

الشعر وموضوعاته :

خلصنا في الصفحات الماضية إلى أن شاعر القرن التاسع عشر قد فقد خصوصيته ألتي ميزته من غيره من الناس أو كاد ، وذلك حين فقد انتماءه للفن ، وإحساسه بمن حوله من الناس ، وصدقه في تجربته . وبذلك فقدّ شعره ووظيفته الإنسانية ، حين تجردت من هذه المضامين .

وقد أسلمته هذه الحالة إلى الاتكاء على الموضوعات التقليدية ألتي ورثها عن الشاعر القديم ، لكنه أساء استخدامها حين هبط بها شكلاً ومضموناً . ولو أستطاع أن يجاري شعرنا العربي القديم كما فعل البارودي لهان الأمر ، لكنه راح يجري وراء شعر فترة الانكسار الحضاري فيُقلدها ويسيء التقليد ، ويجري وراء مضامينها فتعجزه القدرة ، ويحاول أن يصل شأوها فلا يستطيع . وبذلك كان هبوطه بالشعر أشد من شعر فترة الانكسار الحضاري نفسها .